جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية الآداب واللغات

Issn : 2570-0058 Issbn : mai 2017

مجلة علمية دولية – محكمة – نصف سنوية

العمدة

في اللسانيات وتحليل الخطاب

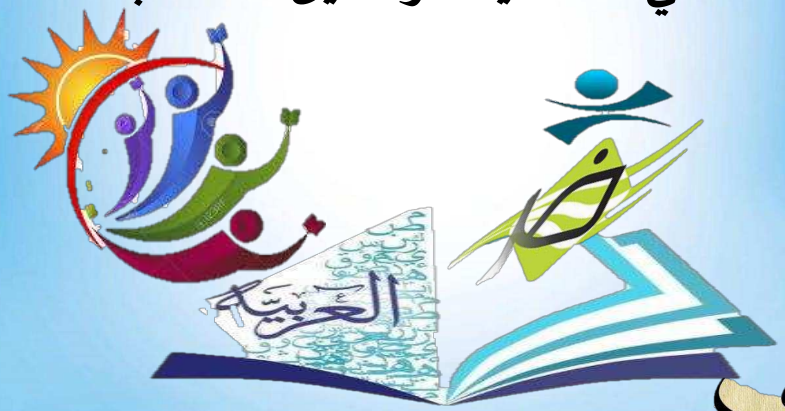

العدد السادس

العـــــدد 06 جانفي 2019

UNIVERSITÉ MOHAMED BOUDIAF M'SILA

FACULTÉ DES LETTRES ET DES LANGUES

Issn : 2570-0058 Issbn : mai 2017

Revue scientifique internationale Semestrielle
Publiée par la faculté des lettres et des langues

EL OMDA

In linguistics and discourse analysis

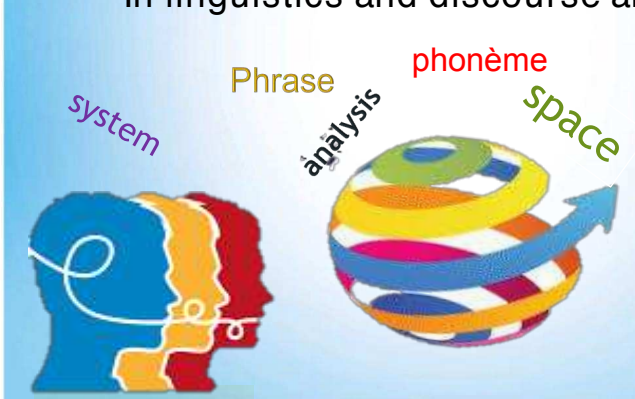

N: 06

العُـــمْدة

مجلة علمية، دولية محكمة – نصف سنوية –
تصدر عن كلية الآداب واللغات

جامعة محمد بوضياف – المسيلة – الجزائر

العدد السادس / جانفي 2019

* بلاغة الجمهور *

البريد الإلكتروني للمجلة: Alomdamadjala@gmail.com

– الموقع الرسمي للمجلة –

http://www.univ-msila.dz/rev-alomda/

موقع المجلة في بوابة الكلية

http://virtuelcampus.univ-msila.dz/fll/?p=5069

موقع المجلة في بوابة المجلات الجزائرية

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

– الترقيم الدولي : **0058 -2572**

تاريخ الإيداع القانوني: مارس **2017**

الرئيس الشرفي للمجلة

رئيس جامعة محمد بوضياف- المسيلة-

مدير المجلة ومسؤول النشر

د، عمار بن لقريشو

رئيس التحرير

د. صالح غيلوس

هيئة التحرير

أ.د. محمد بن صالح

د. أسيا بغداد

د، سليمان بوراس

د. العربي عبد القادر

د. أميرة سوامس

د، تيسر ناصر محمد الحسنو

د. ناصر بركـــــــــة

نالت المجلة الشهادتين: تطوير جديتها والتزامها بمعايير النشر الدولية.

شهادة تحكيم

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

بناءً على تقرير السادة الخبراء؛ يشهد مدير مركز مؤشر للاستطلاع والتحليلات بان:

مجلة العمدة العلمية الدولية في اللسانيات وتحليل الخطاب

الحاملة للترقيم المعياري:

ISSN: 2570-0058

قد تحصلت على درجة 100/52

وعليه فهي حسب مؤشر (AIMQSJ) تعتبر من المجلات الحسنة؛ فئة (B+)

Germany Berlin 10315 Gensinger Str: 112

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

Arabic Index of Measuring the Quality of Scientific Journals

Indexpolls.de

09/06/2018

شهادة رقم (182 -2019)

معامل التأثير العربي

مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

ISSN: 2572-0058

قد حصلت على معامل التأثير العربي لعام 2018 وقدرة 0.52

الاستاذ الدكتور محمود عبد العاطي

Natural Sciences Publishing Cor. NSP

مدير مشروع معامل التصنيف العربي

15 أكتوبر 2018 م

"بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات" الإشكاليات المعرفية والمنهجية... وحدود التأصيل

د. رامي أبو شهاب

جامعة قطر

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية للأسس المعرفية، والأدوات التطبيقية التي انطوى عليها كتاب "بلاغة الجمهور " الذي يأتي بوصفه محاولة تنظيرية وتطبيقية، تسعى إلى رفد المسار البحثي الذي أطلقه عماد عبد اللطيف، ويتحدد بمحاولة وضع تصور معرفي تطبيقي لما بات يعرف ببلاغة الجمهور؛ ومن هنا تتحدد فرضية هذا البحث بمدى توفر الأدوات النقدية والمعرفية الخاصة بهذا المسعى القائم على تجديد البلاغة العربية، مع الإشارة إلى أننا نعتمد في مقاربتنا هذي على منهجية تحليلية تتكئ على اختبار التنظيم الخطابي النقدي تبعاً للمرجعيات التي اعتمدتها بحوث الكتاب، بالإضافة إلى رصد الفاعلية التنظيرية والتطبيقية البحثية في تشكيل وعي المشروع بذاته من خلال مقاربة تحليلية للبحوث التي وضعت من لدن عدد من الدارسين المشاركين في تأليف هذا الكتاب.

Abstract

The purpose of this research is to provide a critiquing reading for cognitive foundations and the practical tools of "Audience Rhetoric book, which comes as a theoretical and practical attempt to support this research path that is launched by Emad Abdullatif. It is determined by trying to develop an applied knowledge of what has become known as Audience Rhetoric.

The hypothesis of this research is determined by the availability of monetary and cognitive tools for this endeavour based on the renewal of Arabic rhetorics through an analytical methodology. This adopts the test of monetary discourse according to the references adopted by the research, as well as monitoring the theoretical and applied effectiveness through analysing the approach to contribute to the development of the critical perception of meditative studies that came from the presence of some researchers involved in this book.

-الجمهور: الأثر والحقيقة:

في ختام فيلم The Prestige أو "العظمة" للمخرج كريستوفر نولان ثمة حوار يجمع بين الممثلين هيو جاكمان وكريستين بال اللذين يؤديان دور ساحرين يتنافسان على استقطاب الجمهور، والتأثير عليه بخدع متعددة، تهدف إلى التلاعب بالعقل والحواس... يقول جاكمان لمنافسه: " بأن الجمهور يعرف دائما الحقيقة، ويعرف بأن ما يقدمه السّاحر ما هو إلا وهم، وتلاعب بالعقول"، ومع ذلك، فالجمهور يرغب بأن يكون جزءاً من هذه اللعبة... ومن ثم يضيف قائلاً: إننا نبحث في عيون الجماهير عن شيء ما"[1].

لا شك بأن منتج الخطاب باختلاف تمظهراته، يسعى إلى تحقيق غايات، كالإقناع، والإعجاب، والتأثير، ومن هنا، فإن الاستجابة تشكل إحدى وسائل تحقيق الغايات التي يتوسلها منتج الخطاب. فالمشهد قد أتى ليعبر عن تكوين الجمهور في ذاكرة المنشئ للخطاب، أو العرض، أو ربما الفرجة، فثمة

عقد ضمني في الخطابات الموجهة من قبل المرسل إلى المستقبل بوصفها (في معظم الأحيان) خطابات مكشوفة، ومع ذلك، فالجمهور يتفاعل معها، ويمضي في اللعبة إلى نهايتها، ولعله يفعل ذلك كي يكون جزءاً من تكوين الخطاب، أو سلطته، واستكمالاً للصورة، أو اللعبة، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن حقيقة الخطابات في تكوينها، أو من حيث قدرتها على أن تؤدي صورة حقيقية لشيء ما، فهي لا تمضي إلا بوصفها تكويناً، أو جزءا مكملاً لا أساسياً، وفي معظم الأحيان تبدو تكويناً لا يمتثل للحقيقة، كونه ينطلق من الفعل إلى رد الفعل، وفي معظم الأحيان، يكون وهمياً، كون الجمهور أو الجماهير حسب كتاب سيكولوجية الجماهير لجوستاف لوبون لا يعول عليها، أو من السهل قيادتها سواء للخير أو الشر، فهي ديماغوجية، تنتج ردوداً غير مدروسة، إذ لا يمكن للإنسان أن يقوم بها في منفرداً، فالمجاميع تتطلب من الفرد التخلي عن العقل، والجبن، كما التفكير في تداعيات الفعل، كون الجمهور يكون مأخوذا بحماس الجموع واندفاعها، في حين أن الفرد لا يجرؤ على تحقيق بعض الاستجابات بمعزل عن هذه الحشود[2]، وهذا مما يعني شكلاً من أشكال التفسير لمفهوم الجماهير، وبالتحديد حين تتحول إلى حشود حيق تفتقد بعض خصائص الوعي والعقلانية تبعاً للموقف.

تستند كلمة الجمهور/ الحشود Mass استناداً إلى ريموند وليمز إلى عدد من الأطر المعرفية بوصفها تجسيداً لفعل التلقي، ولكنها تحتمل قدرا كبيراً من الدلالات التي تستند إلى تحولات تاريخية، فريموند وليمز يقترب من توصيف جوستاف لوبون في أن الجماهير لطالما أدرجت في الخطابات المعرفية ضمن سياق تصورات سلبية، فهي منزوعة العقل، ودونية، وغوغاء، فالجماهير، أو الحشود في الوعي الأوروبي- وحتى الشرقي- تلتصق بالطبقة العاملة، أو الطبقة الدنيا، أو الدهماء، فلا جرم أن تطالها عبارات الاحتقار لزمن طويل [3]، ومن ذلك أنها تنعت بأنها بالطيش والحقد، كما أنها تسم بالجهل والحمق، وعدم الاتزان[4].

تنهض المقاربة التي قدمها عماد عبد اللطيف في دراسته الافتتاحية لكتاب " بلاغة الجمهور" على محورية موقع الجمهور في الحقول المعرفية، وما طال هذا المفهوم من تصورات متباينة معظمها سلبي، فلا جرم أن يفتتح مقاربته بتقويض هذا التصور السلبي، وإعادة تقييم هذه المنظورات[5]. فالجماهير في العصر الحديث قد أصبحت أحد منتجات الثورة الصناعية بحيث اقتربت في تكوينها من النزعة الاجتماعية، والسياسية، ومن هنا، فقد أصبح الجمهور مستهلكين، يخضعون للتحكم، وهكذا نلاحظ تراجعاً في حدة التوصيفات السلبية، ولا سيما صيغ التحقير[6]، بل على العكس من ذلك، فقد باتت الجماهير مثمنة، يُسعى لاسترضائها، ولكن هذا يبقى في مجال التحكم والسيطرة، مما يحفز ردود الفعل عبر الاحتجاج [7] . إن مفهوم الجماهير متحول، وإشكالي، ولكن ثمة قدراً من الاتفاق على تكوينها الجمعي الذي يتخذ قيمته تبعاً للوظيفة التي تؤديها، فهي تتحول إلى أداة، وغاية " موضوعاً"، وذلك تبعاً للحاجة المتوخاة منها، فهي دونية تارة، وتارة أخرى مقدسة، ومع أنها قادرة على

التغيير، بيد أنه يسهل التحكم بها، بالتجاور مع قدر كبير من الخطر حيث لا يمكن التنبؤ بسلوكها، ومقاومتها؛ ولهذا فإن التعامل معها يجب أن يتم بحذر شديد، ومدروس، ولا يتحقق ذلك إلا باختبار استجابتها، وردود أفعالها عبر صيغ متعددة من الخطابات التي تجعلنا نثمن الدراسات التي تسعى لأن تتلفت إلى هذا المستوى من التحولات في آليات التحكم والسيطرة، وبوجه خاص في ظل سياق عربي منفتح على مواجهة واضحة مع النخب، علاوة على قيم العالم الافتراضي، وبروز الوعي الجماهيري المؤثر في ظل وجود منصات تتيح التعبير، وتكوين ردود فعل جمعية تحتمل قدرا كبيراً من التأثير على مسارات الأمور.

ومن النماذج التي يمكن أن نقدم لها على القيمة المنوطة بالجماهير تموضعها أمام الخطابات المنتجة، ومن ذلك الخطبة السياسية التي أرى أن الجماهير في مجالها تبقى مجزوءة التأثير، لا يعول عليها كونها أقرب إلى الاستهلاك الجماهيري المكشوف، ومع إني أتفق بأن بعض أشكال القمع، تنجز بواسطة التواصل الجماهيري أكثر مما تمارس بآليات القمع التقليدية [8]، ولكن هذا يتضح من خلال أجهزة الإعلام الحديثة، ومن مواقع التواصل، والتلفاز، والانترنت، وغيرها، وهذا ما نراه واقعا على سبيل المثال في العالم العربي، فتزييف وعي الجماهير واضح وجلي، ومدرك من قبل الجماهير العربية أينما كانت، ومع ذلك فإن خطابها، يبقى محدوداً. لا شك بأن هذا التلفت لوعي الجماهير، ومنتجها الخطابي قد مارسه تطبيقياً عماد عبد اللطيف في كتابه " بلاغة الحرية" حيث اشتغل على مدونة متعددة المستويات، طالت خطاب السلطة، والنخب مقابل تحليل الخطاب الآخر، وأعني الاستجابات الجماهيرية، وفي هذا السياق يلاحظ بأن ثمة قدراً من الإيمان بدور الجماهير، وفاعليتها، مما يدفعنا إلى مراجعة مفهوم الجمهور ووظيفته ودوره، وبخاصة من حيث قدرته على التغيير في سياقات معينة، كما يجب أن نتنبه إلى مرجعيات الجماهير الثقافية، والعرقية، والاجتماعية والسياسية، ومستوى تحصيلها العلمي، كون استجابتها تتحدد في ظل هذه السياقات، فتلقي جمهور ما متجانس ثقافياً، أو عرقياً، يختلف عن جمهور عير متجانس تجاه خطبة سياسية، أو مسرحية. كما أن الجماهير في ظل تراجع الوعي تكون سريعة التحول عما سعت إليه نظرا لكونها سهلة الانقياد، ومن هنا فإن الإيمان بفعالية الجماهير ينبغي أن يعاد تقييمه، بحيث يجب أن تمنح أولاً الوسائل والوعي لتطوير استجابتها وهذا ما حفّز الباحث عماد عبد اللطيف لإطلاق هذا المشروع. ولنقرأ النموذج الآتي الذي يعكس إيماناً بقدرة الجماهير، ودورها، مع التأكيد على سياقية النص هنا:

" على مدار الثمانية عشر يوما الخالدة – من ٢٥ يناير ٢٠١١ حتى ١١ فبراير – أنتج المصريون خطاباً ثورياً شديد الفعالية، وبدا اللحظة أن الحدود الفاصلة بين خشبة المسرح وقاعة الجمهور قد أوشكت على الزوال، وأن الجميع أصبحوا منتجين ومتلقين للخطاب في الوقت نفسه ولوهلة مضيئة، تحول مسرح التواصل السياسي نفسه إلى

ميدان كبير.... وكان تناغم الأداء، والإنشاد مثيرا للدهشة والإعجاب معاً"[9].

لعل ما سبق يدعونا للنظر في محفزات الدعوة لبلاغة الجماهير، فكيف يمكن للجماهير أن تؤسس خطاباً مضاداً، أو كاشفاً، إذا كنا ننطلق في الأصل من المنشئ؟ في حين أن أدوات إنشاء الخطاب مرتهنة بالكلية إلى الأقوى، مما يعني بأن الجماهير غير المثقفة لا تمتلك وعياً، كون الوعي رهيناً فقط بالمثقفين، وهذا ما اتفقت عليه معظم الدراسات أو الآراء بدءاً من أفلاطون، وأرسطو وحتى جوستاف لوبون[10]، مما يحتاج إلى تكوينات جديدة تتلمس هذا المشكل المعرفي والإجرائي.

لا شك بأن الدعوة إلى مقاومة الخطابات السلطوية ضمن ما يعرف بالاستجابات البلاغية [11]، أو الرشيدة، يبدو أمرا محبذا، غير أن السؤال هو: ما المقصود بها؟ وكيف يمكن أن نتصورها؟ أو ما قواعدها التي يمكن أن تؤسس ممارسة يمكن أن تعتمد من كافة الدارسين؟ هذه الأسئلة تتبدى بوصفها إشكاليات بحثية يسعى كتاب بلاغة الجمهور إلى الإجابة عنها، وهذا ما سوف نسعى لاكتناهه في المحاور القادمة.

- **بلاغة الجمهور: المسوغات والغاية.**

ثمة في الكتاب عدد من الملحوظات التي يمكن أن نصوغها ضمن محاور، منها ما يتصل بالقضايا المنهجية المعرفية على مستوى التنظير العميق للمشروع، وهويته المعرفية، ومنها يتجلى ببعض الملحوظات التي تتعلق بمستوى التطبيق، ومنها يتصل بفعل التواصل المعرفي بين الباحثين والبنية التنظيرية التي خطها عماد عبد اللطيف، ولا سيما من حيث مدى تحقق الانسجام على مستوى فهم فلسفة المشروع، وبخاصة تمثل الفكرة العميقة، وترجمتها إلى واقع.

في كتاب " بلاغة الجمهور" ثمة هدف يتمثل بالحاجة إلى تعديل مسار البلاغة، أو استردادها من راهنها التاريخي المنجز بوصفها تنتمي إلى مدرستين تراثيتين، ونعني الجرجاني والسكاكي كما جاء في تقديم الكتاب، وبذلك فهناك أبعاد معرفية واضحة [12] ، وتعليل الحاجة إلى هذا المشروع من منطلق بأن البلاغة لم تعد في موقع الصدارة في الخطاب النقدي، أو المعرفي، لكونها قد باتت في مأزق أخلاقي، ومعرفي، وهكذا يبرز هذا المشروع الهادف إلى تفعيل البلاغة، ولكن ضمن وجهات جديدة.

عند مقاربتي للكتاب وقعت على مسوغ آخر حيث أدركت أن ثمة وعياً حقيقاً في قراءة الخطاب من خلال الاستجابة التي يقوم بها الجمهور، فكما يقال "بأن البلاغة فن التلاعب بالروح " [13]، مع ما تحمله من دلالات هامة، أهمها فعل التنازع على السلطة، أو نبذ السلطة المهيمنة، ومحاولة تلمس الدلالات الكامنة فيها، وأثرها، وهي موجهات بدت جديرة بالتقدير، ولا سيما عند التلفت إليها عبر الاستجابة الجماهيرية، ووسائل الهيمنة التي تمارسها الخطابات القائمة على مركزية الوجود المهيمن، سواء أكانوا أفراداً يعتلون هرم السلطة، أو في مؤسسة سلطوية، أو دينية، أو حتى في شركة تجارية، تهدف إلى التكسب. ولعل هذا المشروع يعدّ من المشاريع التي ربما تتعرض إلى الكثير من

الصعوبات، والعوائق، انطلاقاً من مستوى الإيمان والتبني من لدن المؤسسة الأكاديمية، أو النقدية في المقام الأول، والتي تتسم في معظم الأحيان بمقاومة الجديد، وتفضيل الانكفاء على برامج نسقية، أو سياقات مجردة، حيث تتقدم مسارات تاريخية مقاومة للتجديد، والحداثة، إذ تبتعد عن مقاربة أفكار إشكالية لكونها تنطوي على قدر كبير من الأيدلوجية، أو القيم الفكرية العميقة.

وهكذا نستنتج بأن هنالك توظيفاً لمنظور بلاغي عام يسعى لأن يكون جزءاً من دراسة بلاغة الجمهور التي تتغيا إزاحة سلطة المؤسسة، أو تجاوز المقولات التي تسعى لمقاومة التجديد المعرفي، أو ما يطلق عليه عماد عبد اللطيف خطاب النخب، أو الخطابات المتعالية[14]، مما يعني بأن الهدف من دارسة الجمهور ينتمي إلى دافع خارجي سياقي، في حين يتمثل الدافع الداخلي بنزعة معرفية تطال أسئلة التجديد التي تطال المشاريع النقدية التراثية للسكاكي والجرجاني، وغيرها من النماذج التي أحال إليها الباحث، وصولا إلى محاولات تجديد الخطاب البلاغي في العصر الحديث، والتي وصفت بأنها كانت غير كافية، أو مؤثرة كما يذكر محررا الكتاب[15].

يشكل المخاطب أو الجمهور مركز بحث هذا المشروع انطلاقاً من دافعين: الأول يتحقق بتعميق الدور المنوط به، انطلاقا من الرغبة بتقويض الاستبداد. الثاني يتمثل بالحاجة المعرفية المسكونة بردة الفعل التي ميزت الاتجاهات النقدية، حيث يأتي منهج ما ليقلب المفهوم والممارسة رأساً على عقب، وهذا ما نراه في تبادل الأدوار، وتعاقبها القائمة على ثنائية داخل النص، وخارجه، وهذا ما يجعلني أتوقف كي أتأمل بعض المقولات التي ميزت هذا المسعى.

لا شك بأن هذا الكتاب، والمشروع عامة، قد أحدث لأي مراقب وعياً بالقضايا التي ينادي بها المشروع عامة، فضلاً عن فتح مسارات جديدة للبحث، والتأمل، ولكن الأهم من ذلك ظهور حاسة جديدة تستهدف التنبه إلى قراءة الاستجابة الجماهيرية، ومحاولة تحليل تفاعلها مع خطاب المرسل، وسياقات اشتغاله على الوعي، والعقل، والعاطفة. ولكن هذا المشروع بصيغته الحالية، ما زال يعاني جملة من الإشكاليات التي تستدعي المراجعة وإلا فإنها ستعوق مساعي الباحثين والعاملين عليه.

-الأسس المعرفية .

لا ريب أن المسوغات السابقة تقودنا إلى أن نتساءل عن الأسس المعرفية التي قام عليها الكتاب، ولا سيما من لدن الدكتور عماد، وغيره من الباحثين الذين توافقوا على مسعى تؤطره مقولة الإيمان بتجدد المعرفة[16]، وهو مسعى، طموح وثوري، غير أنه يحتاج إلى المزيد من التأمل والجهد، من منطلق أن المعرفة متجددة، وبوجه خاص في عصرنا هذا الي يتسم بالسرعة حيث بات يلغي الجديد القديم ضمن مبدأ التحول، فمن الحداثة إلى ما بعد الحداثة. فما الجدوى من نفخ الحياة في جسد ميت تجاوزته المفاهيم والآليات النقدية الجديدة ما لم يؤد هذا النهج إلى خلق مجال دينامي حيوي، أو فاعل في الدراسات البلاغية العربية التي تفتقر إلى

نزعات جدلية قوامها الصراع بين الأفكار، وتبادل الأدوار؟

بداية، لا بد من الإشارة إلى أن مسعى تأسيس ممارسة معرفية منهجية تطبيقية، ينطوي على إشكاليات عميقة، ومعظمها منهجي، ومعرفي، يتصل بالذوات المشتركة في هذا النهج من حيث الرؤية والأدوات التي اعتمدت في الدراسات، ولا سيما عند استعراض الأبحاث النظرية والتطبيقية التي قدمها الكتاب حيث لا نجد نظاما متكاملاً من الأدوات والمفاهيم البحثية قابلة للتطبيق على اختلاف المدونات، فالحاجة هنا تتمثل بمحاولة التوصل لبنية معرفية وإجرائية متكاملة، ومنضبطة تكفل نجاح هذا المشروع؛ انطلاقاً من التنظيرات العميقة التي حاول أن يصوغها عماد عبد اللطيف. ولكن يلاحظ بأن ثمة نوعاً - إلى حد ما - من التعاضد الفكري بين البحوث التي تتمحور حول محاولة تكوين اتجاه نقدي يعتمد نوعاً من التنظيم على مستوى إطلاق الدراسات، كما تبني منظور منهجي واضح، غير أن هذا التوجه بدا في بعض الأحيان بحاجة إلى المزيد من الموضوعية والصرامة المنهجية على مستوى الاكتناه البحثي للعينات التي قاربتها بحوث الكتاب.

إن كل مشروع نقدي يحتاج إلى تيار ذاتي متأمل، أو رؤية نقدي للمشروع عينه، وتحديداً من لدن ذوات ينبغي ألا ترهن ذاتها بالكلية لمشروع نقدي دون تمثل واستيعاب مفرداته بشكل عميق. ولعل هذا ما لوحظ من بعض الدراسات التي بدت غير قادرة على هضم مساعي عماد اللطيف، أو تطلعاته. وهذا يمكن تجاوزه من خلال التعمق برؤيته الفكرية التي نهضت على ارتباطات سياقية، تؤمن بضرورة تجاوز دور المتكلم أو منتج الخطاب بوصفه محور الفعل البلاغي إلى المخاطب / الجمهور، والاستجابة الجماهيرية كما جاء في العديد من كتبه وأبحاثه التي شكلت تراكماً معرفياً نوعياً. فهذا الجهد ينبغي أن يخضع لمساحات أكبر في الممارسة النقدية التأملية، وبالتحديد في سياق تداعيات الربيع العربي الذي قادته الجماهير، ونتج بفعل الاستجابات التي نهضت بها مواقع التواصل الاجتماعي، وغيرها من أساليب الاحتجاج. ولكن هذا الحدث التاريخي لا يمكن التعامل معه بوصفه المنطلق لتحقيق وعي معرفي جديد، كون الحدث التاريخي لم ينضج بعد، ولكونه ما زال في طور جدلي، لم تتضح بعض نتائجه، وتداعياته على الرغم من الآثار السلبية التي يتفق البعض على تحققها، في حين يخالف البعض الآخر هذا التصور.

من أهم مبررات الدعوة إلى هذا التلفت إلى الجمهور بوصفه منتجاً لبلاغة ما، مقولات السلطة، والمهمش، واللغة اليومية، والحياة، والنصوص الدنيا، وهي مقولات استهلكتها من قبل الدراسات الثقافية، وتحليل الخطاب. وقد سبق وأن أشار إلى هذا عماد عبد اللطيف في معرض تقديمه لكتاب " الخطاب والسلطة" لفان دايك [17]. يلاحظ بأن مقاربة عماد عبد اللطيف كانت مشتملة على جملة من المستويات التي تحاول أن تكشف عن أبعاد التضليل، والهيمنة، والتحيز في الخطابات، وأساليب تكوينها، مع الإشارة إلى الوظيفة السياقية لتلك الخطابات [18]. ومن هنا، فإننا نلاحظ بأن العينة، أو المدونات التي قامت

عليها بحوث كتاب " بلاغة الجمهور" تبدو متنوعة الطيف، أو واسعة، بحيث تكاد تشمل كل شيء بما في ذلك خطاباتنا اليومية، وأقوالنا حتى في نزهاتنا مع أطفالنا، ومع أرباب عملنا، كونها تخضع لنسوق سلطوي، فضلاً عن كم التغريدات، والمنشورات والرسائل، والتعليقات، والتفاعل مع النصوص، كما الخطابات من خلال الشبكة العنكبوتية، مما يعني بأننا أمام مدونة لا منتهية، أو أخطبوطية، متشعبة، ربما تحمل بين ثناياها الكثير من الزيف، أو التضليل، كوننا لا يمكن لنا أن نمتلك مقياس الحقيقة في مجال مفتوح كهذا؛ ولهذا فهي غير قابلة للتحديد، مما يعني بأن إزاء خاصية عدم امتلاك أداة القياس، ورصد عامل المتغير، أو التحول. وهذا يقودنا إلى أن تحديد الأسس التي يجب أن تحدد مفهوم العينة، أو المدونة، وطبيعتها التزامنية، وثباتها إلا بوصفها فقط استجابة الجمهور، وهذا يجعلنا أمام مدونة هائلة، وشديدة التعقيد، فكما تذهب " نظرية الجمهور الجديد " إلى أن استجابات الجمهور، تبدو غير متجانسة في العصر الحديث، كونها تخضع لمنطق التفسير الخاص بكل فرد، ولكل منه تجربة خاصة [19].

إن إدراك الباحثين للتداخلات الناشئة مع هذه الدعوة مع مدارس نقدية وفكرية، أو اتجاهات، ولا سيما مدرسة التّلقي، والدّراسات الثقافية، ودراسات الجمهور المتصلة بدراسات الإعلام، وغيرها. وعلى الرغم من أن نظرية الجمهور هي مجال معرفي قائم في الغرب قبل عقود طويلة حيث ارتبطت بالنظرية الأدبية والدراسات الثقافية، مع تركيز واضح على العنصر البلاغي، فهي لا تسعى لدراسة الاستجابة الجماهيرية على مستوى الخطاب فحسب، وإنما على مستوى الفعل والحركة والأداء، وأبرز من نظّر لهذا المستوى الباحث الأمريكي البلاغي الشهير " لويد بيتزر"، والذي شدد على الوضع البلاغي، وتوقيته في دراسة شهيرة له نشرت عام 1968 [20].

ينطلق بيتزر من توضيح مفهوم الوضع البلاغي، أو السياق البلاغي المتعالق بإنتاج الخطاب، وتوقيته، وما يمكن أن يتقدم منه أو يتأخر، ولهذا فإنه يبدأ باستقراء آراء أرسطو حول هذا الوضع البلاغي الذي لم يحظ بعناية كبيرة في البلاغة اليونانية القديمة، يشير إلى شكل التفاعل الناتج في هذا الوضع بين عناصر كالمتكلم، والجمهور، والموضوع، والمناسبة [21]، كما أن أرسطو ركّز على أجزاء الخطاب، وأقسامه، وأثره بمستوييه: العقلي والعاطفي، فضلاً نوع الحجج المستخدمة، كما طبيعة الخطاب، ووظائفه، غير أنه سرعان ما يتقدم إلى طبيعة التفاعل أو التواصل البشري مع الخطاب [22] ، وقدرته على التغيير، والتعديل للعالم عبر التكوين ذرائعي[23]، وبوجه خاص تحديد أنواع الاستجابات الخاصة بالخطابات على مختلف أنماطها وأشكالها [24]. وبناء عليه، فنحن أمام معضلة حقيقية، وشديدة التعقيد، كوننا في وضعية تبدو متداخلة، لا منتظمة، ومنفتحة على كل شيء، فكيف يمكن أن نتلمس إطارا مفاهيماً، لبلاغة الجمهور؟ وما أسسها المعرفية؟ أو ما جهازها المعرفي، والمفاهيمي؟ وما أدواتها التطبيقية؟ وهل يمكن أن يكون لها قواعد، وأسس واضحة كما هي الحال في البلاغة

القديمة، أو البلاغة بشكل عام؟ ولكن الأهم من كل ذلك... كيف يمكن استخلاص نتائج تتصل بالتحديد المعرفي، والاصطلاحي للبلاغة بوصفها فناً في المقام الأول؟

للإجابة عن الأسئلة السابقة، لا بد من الإشارة أن ثمة وعياً متقدماً لدى الباحث عماد عبد اللطيف بهذه الإشكاليات، فقد أشار لها في دراسته الافتتاحية؛ مما يعني بأن الاتجاه المنهجي ينطوي على قيمة تأملية إلى حد ما، فأي فعل معرفي يجب أن يحتمل الفعل النقدي الذاتي، وما هذا المسعى التأملي من لدن عماد إلا محاولة لتجاوز العقبات والثغرات التي يمكن أن تطال هذا المشروع حيث يقول في مقدمة دراسته: " وتلقى مشروع بلاغة المخاطب / الجمهور منذ نشر الدراسة، ردود فعل متباينة، اتخذ بعضها منحى تطبيقياً، هدفه استكشاف إمكانيات الإفادة من المشروع في معالجة تنويعة من النصوص والخطابات المتباينة. في حين توجه بعض آخر إلى مساءلة الاسس النظرية للمشروع، وبخاصة مساءلة علاقته بحقول معرفية أخرى، وجدارته بالانتماء إلى حقل البلاغة العربية، والأهداف التي يسعى لتحقيقها، وإمكانية ذلك" [25].

وهكذا، يسعى عماد عبد اللطيف إلى تقديم تصوراته بهذه الإشكاليات من خلال عرض لنماذج من البلاغة القديمة التي نهضت على دور المستهلك للخطاب، أو المتلقي، أو الجمهور، ومنها أسلوب الحكيم، الأجوبة المفحمة، وقد حددها بخمسة أنماط، فضلاً عن توضيح التداخلات الناشئة بين بلاغة الجمهور، وغيرها من الحقول المعرفية، وعلى ما يبدو فإن البلاغة قد صنعت قيمة منهجية، ذات قواعد محددة، ومنجزة، وهذا ما يجعلني أعتقد بوجوب وجود هذا الجهاز القاعدي، الإطار المفاهيمي في أية بلاغة، مما يستدعي بناء هذا الجهاز، والتحقق من مقدار صلاحيته، وتماسكه في بلاغة الجمهور، أي وجود أدوات واضحة تستخدم في تحليل بلاغة الجمهور بين ثنايا متن هذا الكتاب.

-التداخل المفاهيمي والإجرائي .

يشير عماد عبد اللطيف إلى أن الأسئلة المعرفية للبلاغة الجمهور تتصل ببنية النص، ومن ذلك المستويات الصرفية والتركيبية، ومن ثم الأداء والسياق السلطة والمحكوم، مما يعني بأن كافة هذه الأسئلة متضمنة في الدرس البلاغي القديم، والذي تطور إلى الأسلوبي، في حين أن بعض ما أشار له قائم في النقد الثقافي، أو في دراسات الإعلام، وبناء عليه، فإن هذه الدعوة تسعى لأن تجمع عدة اهتمامات في مسعى واحد، ولكن ثمة رؤية متبصرة، تنهض على نقد هذه المستويات، وإعادة صوغها في إطار جديد، وهذا مما يمكن أن نعده تقدماً في تحقيق بلاغة لجمهور التي تسعى للإفادة في تطوير آلياتها، وتجديدها، ولكنها مع ذلك، سوف تبقى – تاريخياً – محكومة في إطار التجديد، لا التأسيس، أو لنقل في إطار التطوير. وهذا مما يعني بأن ثمة تقدماً ملحوظاً في هذا المشروع من حيث تكوين منظور تطوري للبلاغة نحو الإفادة من جملة اتجاهات ومدارس في تكوين نسق يبحث العلاقة بين المنشئ للخطاب والجمهور واستجابته.

لقد شكل فعل توجيه البلاغة من دراسة النص، أو منتج النص إلى دراسة المتلقي- الجمهور – المخاطب أحد أسس هذا التوجه، وكما نعلم فإن موقع الجمهور في النص، وفي المنظور البلاغي قديم قدم أرسطو، ولكنه لم يتخذ بعداً في التنظير بصورة معمقة، أو اتجه إلى وجهات جديدة إلا مع البلاغة الجديدة، أو في المنظور المعرفي المعاصر، في حين أن البلاغة العربية اختصت بالنص، أو بمطابقة مقتضى الحال، وهو إلى حد ما، يقترب أو يمسّ موقع المتلقي، أو الجمهور، وحقيقة التأثير بوصفهما حالتين من الاكتمال، كما تشير تعريفات البلاغة العربية سواء الاصطلاحية أو اللغوية. غير أن قيمة دعوة مشروع الدكتور عماد تنهض عبر النظر إلى المتلقي لا بوصفه وجوداً ذاتيا، فرداً، إنما تكمن أهمية التوجه إلى كون هذه الذوات منصهرة في تكوين كلي جمعي، يتشارك الوعي والشعور، والأهم ردة الفعل، ومع أن التنظير الذي قدم له الدكتور عماد عبد اللطيف يرفض الصورة السلبية للجمهور بوصفه غير متعقل، فهو يؤمن بترشيد استجابته من خلال الوعي والممارسة، وينطلق من رؤية ترى بأن الجمهور يتكون من أفراد مستقلين لا يجمعهم فضاء فيزيقي واحد كالجمهور الذي يتابع الأخبار أو الخطابات في شاشات التلفاز [26]، بيد أن مصطلح الجمهور يحيل إلى مرجعية جمعية لا فردية، فحين تدرس الاستجابة تدرس بوصفها استجابات جمعية لا فردية، ولهذا تنعت بالاستجابة الجماهيرية، في حين أن بعض الدراسات تختبر تلك الاستجابات الجمعية في فضاء عمومي كالتهليل، أو التكبير، أو التصفيق، وهذا ما يدفعني إلى التساؤل عن قيمة الإشارات التي تهدف إلى نبذ سلطة الخطاب، وتكريس التلاعب بالجمهور من لدن خطابات مهيمنة، ففعل السلطة التي نرغب بدفعها للخلف، تحيل إلى أنظمة معرفية بحد ذاتها، فهل نعني سلطة منشئ الخطابات التي تمارس سلطة اللغة على الجماهير، وتسعى للتضليل؟ وهذا في ظني يشي بإشكالية منهجية تحتاج إلى المزيد من التأمل والبحث.

لا شك بأن وعي التلقي، أو الجمهور، يتصل بطريقة أو بأخرى - في أول تماس- مع منتج النص والوعي الجمعي في الخطابات التراثية التي تأسست على الخطبة، في حين أنها تلاشت من التنظيرات النقدية الحديثة، إلى أن برزت الخطابات المؤسسة على وعي جماهيري أسهمت الآلة الإعلامية المعاصرة في إنشائها، فثمة وعي بطريقة أو بأخرى بأن الخطاب يسير باتجاه كلي جمعي، لا ذات منفردة، وبهذا فإن دراسة الجماهير، ووسائل التداولية في تكوين الخطاب، بدأت مع الدراسات الإعلامية، بالإضافة إلى سيكولوجية الجماهير كما أشار لها جوستاف لوبون، ومدرسة تحليل الخطاب، وأحال إليها أكثر من باحث في متن هذا الكتاب، أو كما يطلق عليها عماد عبد اللطيف " التحالف المعرفي" [27]. ففي دراسة له حملت عنوان منهجيات دراسة الجمهور- دراسة مقارنة [28] ، يلاحظ بأن مسعاه يتحدد بتمييز مجالا التمايز والاختلاف بين دراسة الجمهور وقطاعات ومقاربات منهجية أخرى، منها مادة البحث، وقد بينا أنها تقع ضمن مجال المدونة التي تبدو شديدة الاتساع، ومن ثم ينتقل إلى التقاطعات القائمة بين دراسة الجمهور، وبعض

المقاربات، ومنها التراثي، والرقمي، وعلوم التواصل، والأخيرة يحددها بعدد من المسارات كالدراسات الثقافية، والدراسات الإشباعية، كما النقدية لوسائل الإعلام، بالإضافة إلى المقاربة البنيوية لتحليل النصوص، وما بعد البنيوية، زد على ذلك المقاربات النسوية، والتحول الاثنوجرافي، في حين أن هنالك محوراً يتعلق بتحولات الجمهور في العصر الفضاء الافتراضي، ومن ثم دراسة الجمهور، ونظريات البلاغة الكلاسيكية والمعاصرة، وهذا ما يجعله يقرّ في خاتمة هذا المحور من خلال وضع عنوان " بحوث الجمهور في العلوم الإنسانية من الوحدة إلى التنوع"[29]. لا شك بأن هذا المجال الهائل ربما يعيدنا إلى الإشكالية المحورية في هذه الدعوة من حيث فقدانها لهويتها وتماسكها كونها باتت تتخلل كل شيء، مما يجعلها مجالاً بلا ملامح محددة، متشعبا، بل وشديد التشعب.

يشار في هذا السياق إلى أن ثمة وعياً جديداً يتصل بالتكوين النسقي الجمعي للجماهير، وما تحتمله من إنتاجات تتخذ طابعاً توجيهياً، مؤيداً، أو مقوّضاً، مما يجعل هذا المجال شأنا متنازعاً عليه، لا سيما في ظل طغيان الدراسات الإعلامية، وهنا لا بد من الإشارة إلى الاهتمام بدراسة الجماهير قد بدأت بين عامي ١٩٨٠ وحتى ما قبل ذلك، وتحديدا في سياق دراسات الإعلام والدراسات الثقافية كما يذكر كتاب " التلفاز والجمهور والدراسات الثقافية" للمؤلف ديفيد مورلي[30]، مع الإشارة إلى أن هذه الدراسات ما زالت تحوز قيمة مضاعفة لكونها تشتمل على الممارسة البلاغية بوصفها وسيلة للتأثير على الجمهور.

في عدد من الدراسات المساندة لمشروع الدكتور عماد، يلاحظ بأن بعضاً منها لم تعتمد سنداً معرفياً واضحاً، أو مرجعية واحدة، ولا سيما في تكوين خطاب أو جهاز معرفي خاص بدراسات بلاغة الجمهور، فهي تارة تستعين بدراسة علم نفس الجماهير، ولا سيما كتاب جوستاف لوبون الذي شكل مدخلاً لعدد من الدراسات ومرجعية تنظيرية مركزية، فالإحالات معظمها ينهض على نظرية تحليل الجمهور، لوبون، أو التحليل النفسي لفرويد، بالإضافة إلى كتب تحليل الخطاب لفان ديك، بالإضافة طبعاً إلى كتب عماد عبد اللطيف، غير أن الملاحظ بأن الإحالات لكتب عماد عبد اللطيف تبقى مقصورة على التعريف، والمقدمات، وتتمحور على تعريفات بلاغة الجمهور، ومفهومها العام، ومقاصدها، والتعريف بالمشروع، وذلك ضمن تكوينات بسيطة، ولكن عند محاولة التعمق، وتقديم رؤية معرفية وتطبيقية واضحة، فإن الإحالات تنحو إلى أسماء أخرى غربية، مما يعني عدم القدرة على تمثل فكر صاحب المشروع، وتقديم مرجعية معرفية متينة، ولهذا يسعى إلى ربط هذه الدعوة بدراسات منجزة، ومنتهية في الوعي المعرفي مما يجنبها قلق التنظير والتطبيق.

لا بد من الإشارة إلى أن جزءاً من هذه الدراسات التي اشتمل عليها الكتاب في الجانب النظري، تنطلق من خلفيات ذات طابع ثقافي، وبالتحديد عند الإشارة إلى مدرسة فرانكفورت والنظرية الماركسية[31]، ومن ثم هناك الانتقال إلى دراسة الإنتاج الخطابي، وفعل الاستجابة من ناحية الظواهر اللغوية، ومن ثم التعالق بين السلطة

والجمهور، وهذا مما يعني بأن هذا المقترح التنظيري العام للدراسات يتخذ طبيعة ممتدة، أو متشعبة، تحاول المزج بين مدرسة تحليل الخطاب، والبلاغة بتكوينها البسيط، والكلاسيكي، ولهذا نرى أن الباحث يستعين بالموضوعات التي يشير إليها عماد عبد اللطيف، والتي يمكن أن تدرس وهي، كما يلاحظ ذات طبيعة عابرة لمختلف المناهج والدراسات، مما يعني بأنها ذات تكوين تجميعي توفيقي، ولكن تحت عنوان بلاغة الجمهور، ومنها على سبيل المثال الخصائص اللغوية والبلاغية للخطاب، والأغراض، وأنواع المخاطب، ومن ثم طبيعة الاستجابة، في حين يبقى التنازع السلطوي محور العملية التنظيرية، مما يعني بأن مفهوم البلاغة بوصفها فعلاً يختص بدراسة الخصائص والآليات، قد انحرف إلى محاولة دراسة المكونات أو العلاقات الثقافية، فالهدف من الدراسة بات متشعباً يفتقد إلى الوحدة، فهل الدرس سوف يسعى إلى تحديد الخصائص التي مكنت الاستجابات الخطابية في خلق نمط من مصادر سلطة الكلام؟

ويهدف التأكيد إلى ما نذهب إليه، فإن الباحث سعيد بكار، يعيد جذور دراسة بلاغة الجمهور إلى مرجعية معرفية تتصل بالماركسية، وفلسفتها[32]، أضف إلى ذلك التحليل النقدي للخطاب، والبلاغة القديمة، والبلاغة الجديدة، ومن ثم يسهب في تكوين تصورات عن العلاقة بين هذ الحقول، أو بين هذه الأصول، مما يعني بأن النهج يبدو توفيقياً أيضاً، إذ يحاول الإفادة من تصور ذهني ثقافي سياقي، بالإضافة إلى تصور داخلي لغوي، ويجمع بينهما بحيث يكون مركزها المخاطب، أو الجمهور، وهذا ما يتوافق مع تصورات البحوث التي شملت القسم الأول من الكتاب، في حين يشير بحث آخر إلى الأصول الأخرى كالبلاغة القديمة، والتي يميز ثلاثة أقسام منها، وذلك استناداً إلى تقسيم عماد عبد اللطيف، وهي: البلاغة القرآنية، والبلاغة الأدبية، ومن ثم يضيف البلاغة الإنشائية، والأخيرة تختص بلغة الحياة اليومية[33] ، والتي تستهدف تحقيق وسيلة اتصالية لا تواصلية، غير أن هذا النهج اصطلاح غربي، يختص بدراسة الكتابة تحديداً، وتطويرها، ولكن في سياق أكاديمي على حد علمي، وذلك لكونها كتابة ذات طبيعة مخالفة للتصور الذي خرجت فيه بوصفها خطاباً أحادياً، فالدعوة للإقناع والتأثير لن يتحقق ما لم تقع الاستجابة، وليس كما يقول الباحث، فإن ثمة طرفا غائباً، ونقصد الجمهور، مما يلغي عملية التفاعل؛ ولهذا فإنه يبرر أهمية إنشاء نوع جديد يختص ببلاغة الجمهور انطلاقاً من أفكار عماد عبد اللطيف، وهو التوجه الرابع[34]، ولكنه سرعان ما يمضي إلى حقول ومنهجيات أخرى مما يعني افتقاد مرجعية واضحة، وصلدة، أو بناء منهجية واضحة، فهو يستعين بمفهوم التواصل عند ياكبسون، والتداولية، والتلقي، وقبل ذلك استعان بدراسات الإعلام، وعلم النفس الجماهيري، وفرويد، وفان ديك، وجوستاف لوبون، بل ينقل منها بشكل واضح، مما يعني بأنه ليس ثمة تأسيس في تكوين هذا البعد التنظيري للأسس المعرفية وعلاقته مع هذا المنهج الجديد بحيث يعتمد عليها بثبات أكبر، فهوية هذا الحقل تعاني من عجز في بناء تصور فلسفي عميق، أو أصول معرفية صلدة،

إنما هي تسعى إلى الاستعانة بمناهج متعددة، وهذا مما يجعلها قلقة على مستوى الهوية المعرفية، وجهازها المفاهيمي والتطبيقي.

في حين أن صلاح حاوي يسعى أو يسير في النهج عينه، فهو يربط بلاغة الجمهور بنظريات التواصل والتلقي، ويسعى للإفادة منها في تشكيل رافد هذه الدعوة الجديدة، وهذا ينقلنا إلى الأثر التوفيقي والرغبة في صهر عدة مناهج في تصور واضح، بحيث يفيد من كل جانب، وهذا مما يدفع إلى تصور يبدو قلقا، كون أن أي منهجية حين تعتمد هذا الكم الهائل من المرجعيات سوف يخلق تصوراً مشوشاً، أو فاقداً لهويته، فيمسي بلا حدود واضحة، وهذا يتنافى مع طبيعة العلوم، والمنهج العلمي، ولكن الجديد في هذا التوجه سعي المشروع الانتقال من منتج النص إلى متلقيه، وهذا واضح في نظرية التلقي والتواصل، غير أن استجابة الجماهير تتصل بتموضعات جمعية ضمن فضاء عام، وهذا يشكل قيمة مائزة.

يسعى عماد عبد اللطيف في مقاربته المعرفية " بعنوان منهجيات دراسة الجمهور" إلى تكوين نظام منهجي، غير أنه ينصّ في مقدمة بحثه على أن هذه المنهجيات هي منطقة بحث مشترك، وهذا مما يعني اعترافاً واضحاً بهذه الإشكالية، وهذا يعدّ نوعا من التقدم في بيان القيمة التأملية للمشروع، وإدراك واقعيته، وهذا يحسب للباحث، ولعل هذا الطرح يحيلنا إلى أن ثمة إشكالية في تكوين تصورات خاصة بدراسة الجمهور، أو محاولة تأسيس منهجيات خاصة به، فهذا مما يعدّ من أشد الأمور صعوبة في فعل التأسيس لمنهجية بحثية، أو اتجاه نقدي، في حين أنه يسعى لتقديم تصورات خاصة بهذا المنحى في البلاغة العربية القديمة، ومن ثم في البحث في البلاغة اليونانية، ومن ثم يشير إلى دراسات التواصل،وأثرها في تعزيز دراسة بلاغة الجمهور، فهما يشتركان في التوجه إلى المتلقي، ولكنهما يختلفان في المنظور، والأداة، فالأولى تتصل بعملية القراءة والمعاني المحتملة، في حين أن بلاغة الجمهور تعنى بسياقات أخرى، ومنها الفرجة، والاستماع، أي الفضاء العمومي، أو الحياة اليومية، ومن ثم يستجلب الباحث سلسلة من الأمثلة كاستجابة جمهور لحفل موسيقي، أو جمهور مناظرة؛ أي أنه معني بالاستجابة المادية اللغوية، أو غير المادية، في حين أن الثاني يُعنى بالمعاني المجردة. ويمضي الباحث في معالجة هذا التداخلات بين بلاغة الجمهور، وفضاءات أخرى كالأدب والسياقات التي تحيط بها فردياً وجمعياً، ومن ذلك سياق طبيعي، سياق مصطنع، أو مصنوع، وهذا مما يعد من وجهة نظري أمراً متقدما للغاية، ولكنه يحتاج إلى بنية منهجية، أو قواعد أكثر انضباطاً ربما تتحقق في المستقبل، مع أهمية التنبه إلى إشكالية التداخل كون الكثير من المستويات المشار إليها يمكن أن تدرس في سياقات الدراسات الإعلامية، أو علم نفس الجماهير، أو حتى في علم الاجتماع الجماهيري، كما في الدراسات الثقافية، أو في غيرها، أي ما دامت دراسة الجمهور تتخلل كل هذه المجالات والمسارات بوصفها جزئية، أو مركزية، فذلك يعني بأن تكوينها رهين مجالات أقوى منها تستقطبها، وتمتصها، ولكن يمكن أن ننظر إلى الأمر بشكل آخر، فتخلل دراسة الجمهور يبدو من العمق بمكان بحيث أنه يعد قيمة سائدة

في معظم المنهجيات مما يتطلب أن يكون مجالاً واتجاها قائما بذاته، وهذا يتطلب التلفت له من قبل العاملين على هذا المشروع.

-الدراسات التطبيقية...الفاعلية الإنتاجية.

تحفل الدراسات التطبيقية بمحاولات تكوين ممارسة نقدية، تتصل بدراسة استجابة الجمهور، وتحقيق فاعليتها، وهي تتنوع تبعاً للعينة، والمدونات التي تعالجها، ومنها على سبيل المثال دراسة استجابة الجمهور للبرامج الدينية، وخطاب الفتاوي، بالإضافة إلى دراسة الاستجابات في الفضاء الافتراضي، ويلاحظ بأن الدراسات في هذا الجانب كانت أقرب إلى التنظير والوصف، علاوة على تشتتها في بعض الأحيان، فضلاً عن عدم وضوح قواعد أو استراتيجيات واضحة، في حين تتعدد الآليات تبعاً للفضاءات التي تسعى لمقاربتها، فمعظم الدراسات تحاول أن تنقل لنا ما يقوله الجمهور فقط، وتعلق عليه، أو تسعى في أحسن تقدير الوقوف على بعض السمات المشتركة، وأثرها.

تبدو الدراسة التطبيقية الأولى للباحثة حامدة تقبايت" بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني" أقرب إلى تحليل عابر للمستويات فهو إعلامي، وثقافي، وبلاغي، ولا سيما من حيث المصطلحات والمفاهيم، والمقاربة، فهناك تأكيد على ارتباط الشعب بالمعطى الديني، وهذا يتضح من الاقتباسات المدرجة، في حين أن الأداة البحثية عبارة عن استبيان يهدف إلى الاطلاع على كيفية التواصل بين المفتي والجمهور، في حين أن الكثير من التحليل يذهب إلى المنتج للنص، ونعني خطاب "المفتي" الذي يتصل بسلطة الدين، لا للبحث في الاستجابات التي ترى في شكلها الآخر بديلاً، ونعني الجمهور الالكتروني، وهكذا يتم اللجوء إلى المجال الافتراضي. ولعل هذا التكوين البحثي يبدو بحاجة لإعادة تأمل بعض الشيء كونه يحمل شيئاً من المزج بين التنظير والتطبيق، مع انحسار بعض النتائج الحاسمة فيما يتعلق بفهم استجابات الجمهور الذي تحول إلى الفضاء الرقمي باعتباره بديلاً عن وسائل الإعلام التقليدي[35].

يذهب البحث الثاني في متن كتاب بلاغة الجمهور إلى اكتناه سلطة الخطاب الديني في الفضاء الرقمي أو الافتراضي، ومظاهره، ومنها وسائل التواصل الاجتماعي: فيسبوك، وتويتر، وغيرها، مما يعني بأن الاستراتيجيات البلاغية تبدو متعلقة بالأداة، أو الوسيط، ومدى ما تحققه من إمكانيات تفاعلية، فلا جرم أن ينتقل الباحث إلى خصائص التواصل الاجتماعي، ولعل هذا يبدو نهجاً إعلامياً أكثر مما هو منظور بلاغي، كونه يبحث في العلاقات بين الجمهور والتلقي، وما تنتجه وسائل التواصل من أدوار[36]. فمعظم الملحوظات، تتحدد بالتحول من التلقي السلبي إلى المشاركة الإيجابية، وهذا يشمل المباشرة، أو المحاكاة، وإعادة الصياغة، والتفنيد، ومقابلة خطاب الوقائع، وحجاج بالأسئلة، وتهكم، وسخرية، أو مقاومة خطاب... ولكن هل يمكن أن نعد هذه التوصيفات قواعد بلاغية كون معظمها معروفاً، وشائعاً في الخطابات، غير أن الإضافة تمثلت بأنها قد انتقلت من منتج الخطاب إلى الجمهور الذي توفر على مساحة تعبيرية جديدة.

يبرز الجانب التطبيقي في بحث أحمد عبد الحميد بعنوان " يسقط، يسقط بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية الهجمات الشخصية ضد مبارك نموذجاً" [37] ، حيث يبدو منشغلاً بالتنظير للمفهوم الحجاجي حيث استهلك جزءاً كبيراً من متن البحث بحيث يحيف على الجانب التطبيقي الذي جاء متواضعاً من حيث الوصول إلى نتائج ذات وجاهة، ربما يدركها أو يقع عليها الشخص غير المتخصص، ومن ذلك على سبيل المثال مهاجمة الزعيم شخصياً عبر الفكاهة والتندر التي تتجلى بالهتافات، فضلاً عن مزاعم الثروة والطائلة[38]، ولعل هاتين الملحوظتين هما خلاصة البحث، مما يعني بأن النتائج المرجوة على مستوى التطبيق قد افتقدت إلى الكثير من النماذج والاستنتاجات التي كان من الممكن أن تثري البحث.

في حين نجد أن بحث " خطاب مؤسسة الحكم" لبسمة عبد العزيز، والذي يذهب إلى تحليل عبارة الجمهور متل تحيا مصر، وعبارات الانتقاد، وهذا يحيل إلى مستوى لغوي لم يتطاول إلى معالجات عميقة في قراءة هذه الاستجابات ربما لكونها لا تنطوي في ذاتها، أو في تكوينها " أي تلك الاستجابات" على أمر يستحق الكتابة عنه، أي ثمة قصور في العينة، أو في المعالجة، فلا جرم أن يلجأ البحث إلى أدوات تحليل منجزة وممارسة في مجالات أخرى، ومنها السياق، والصورة، واللون والتحليل السيمائي[39]، مما يعني شكلاً من أشكال التحليل النمطي الذي لا يميزه سوى أنه موجه لخطابات متبادلة بين المرسل والمتلقي، علاوة على تحليلات تمزج بين عدة مستويات ومناهج، إذ يلاحظ التكرار في أدوات التحليل، مما يعني محدوديتها، علاوة على تعدد مبالغ فيه يتصل بالعناوين والمستويات التي تتشابه وتتداخل، حيث نجد أن الباحثة تحيل إلى الانتقاد المستتر في أكثر من أربعة مواقع، أو عناوين وهي " الانتقاد المستتر، ومن ثم دلالات اللون والانتقاد المستتر، وبالتحديد عند تحليلها لخطابات، وصور، ومنشورات، ومن ثم تلجأ إلى التحليل السيمائي، لتعرج فيما بعد على خطاب السلطة، ومن ثم الحذف والإضافة، وكشف وسائل السلطة، وتعريتها، كما تعميم الخطاب اللاعقلاني، والجمهور والمساءلة القانونية، وتطوير الاستجابة، والوعي بالثنائيات الإقصائية، وغيرها من العناوين، مع التذكير إلى كثرة العناوين في التمهيد النظري، وهذا مما يشي بتداخل كبير جدا حيث وصل عدد العناوين الفرعية إلى أكثر من (45) عنواناً في (37) صفحة [40]، مما أفقد البحث توجهاً واضحاً.

في بحث "بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي" للباحث بهاء الدين أبو الحسن[41]، ثمة منهج يفيد من البعد التقني وأدواته، أي دراسة تتصل بخطاب إعلامي، والتي تدرس تعليقات القراء، وما تنطوي عليه من فكاهة، وهذا يحيل إلى أثر موجه من قبل التلقي نحو الخطاب السلطوي بالسخرية ولكن هل هذا يكفي؟ هناك محور من البحث يلجأ إلى اكتناه هيمنة الفضاء الرقمي بوصفه المنصة التي يمكن أن تقدم وتجمع خطابات الجمهور، وهذا أمر جيد، ولكنه على ما يبدو لا يحقق معيارية واضحة، كونها تبقى عينات تبحث في قيمة التعليق بوصفه موقفا نهائياً، في

حين أن هناك من يغيب عن التعليق أو أنه مكره عليه، وبناء على ذلك، لا يمكن أن نتبين أحكاما جازمة، كون الخطاب محدوداً، في حين أن الدراسة في جانب منها تبدو نظرية، تدرس مفهوم الخطاب السياسي، ومفهوم "الأيثوس" صورة منتج الخطاب التي يكونها عن نفسه، وتتجلى في الذكاء، والقيادة والإنسانية، وهي وسائل تستهدف الهيمنة على العقول والسيطرة على المشاعر والإيهام، غير أن الجمهور يدرك أنها ليست حقيقية، وبهذا، فإن ثمة تقييماً لمفهوم الجمهور انطلاق من قيمته السلبية إلا من خلال تعليقات معينة، في حين يلاحظ بأن المنهجية الممارسة ما زالت تقع ضمن مجال التلقي، وهكذا ففعل التحليل ينتقل من منهجية إلى منهجية، ومنها: بلاغة العنف، وبلاغة والاحتشاد البلاغي التي تنهض على الأثر الصوتي، والبنى الإيقاعية، وهذا مما لا يبدو متصلاً بتصورات جديدة لمعنى الاستجابة الجماهيرية بوصفها مجالا بلاغياً جديداً.

ومن الدراسات التطبيقية" بحث "السيرة الهلالية والتلقي الشعبي، دراسة في أشكال الاستجابة الجماهيرية" لخالد أبو الليل[42]. والتي تنهض الدراسة على اكتناه الاستجابة البطولية الحماسية، فضلاً عن أداء الراوي، وهذا أمر بدهي، وشائع، وهناك الاستجابة الجغرافية التي تراعي السياق المكاني، للجمهور، وهناك الاستجابة الجندرية، والاستجابة القبلية، وأخيرا الاستجابة الإلكترونية التي تبحث في تعليقات مشاهدي اليوتيوب على المقطع، ومن ثم يرصد الباحث عدد التعليقات، والإعجابات، متوصلاً إلى نتائج غير أنها تحتاج إلى المزيد من الاكتناه المعمق، وذلك من أجل التوصل إلى نتائج حقيقية، وهذا يتحقق من خلال فكفكة البنى العميقة لهذه الاستجابات.

نقرأ في بحث " السلطة المخادعة والوعي الزائف جمهور الرواية ورواية الجمهور" لممدوح النابي[43]، تثمين الأدب الذي يكمن في الظل، وهذا يعني توجها للبحث في استجابة الجمهور ضمن عدة قطاعات واسعة، ولكن متن البحث يتخصص بالرواية، وبالتحديد تلقي الجهور لروايتي يوسف زيدان واختلاف منظور الجمهور، وتلقيه لها، وهذا نهج مسبوق ممارس في الدراسة النقدية ولا سيما من منظور تفسيري تأويلي، ينهض على المتلقي، كما أنه يرتبط بتحليل خلفيات الجمهور، وتعليقاتهم، وانطباعاتهم حول بعض الأعمال من منطلقات محددة، فهو يبحث في مرجعياتهم، الاجتماعية، والثقافية، والدينية، والسياسية، وأثرها على التلقي، ومن ثم الاستجابة، لنستنتج بأن ثمة تأملاً بوعي الجماهير تجاه العمل الأدبي من منظورات مختلفة، ومع ذلك، فإن النتائج تحتاج إلى المزيد من الاكتناه البحثي ضمن وجهات جديدة تتأسس على المنتج البلاغي للجمهور، وتميزه أو اختلافه عن الاستجابات الخاصة بفعل التلقي المألوف.

وختاماً، يلاحظ بأن معظم المستخلصات والنتائج التي توصلت لها جملة الأبحاث بدت ساعية إلى تمثل القيمة الفعلية لهذا المشروع النقدي، ومع ذلك، فهي تسهم بشكل جلي، أو عميق في تفكيك القيم السلطوية، وتحقيق النزعة المرتجاة من هذه الخطابات والاستجابات، بحيث تنتقل من قيمة التعبير إلى قيمة الممارسة، ولعل

هذا يفسر بأن الوعي الجماهيري سوف يبقى أسير ردة الفعل، وفقدان الوعي النقدي، والقيادة المؤثرة، مع تغييب للبعد العقلي الوازن، بحيث تبقى استجابتها غير فاعلة، ما لم يصحبها وعي نقدي عميق يطال الأسس المعرفية، وتكوين صيغ استراتيجية وآليات جديدة ومبتكرة، ففي ظل غياب أسس معرفية، ومنهجية واضحة، كما الاستعانة بمنهجيات وتطبيقات متعددة أو مبتكرة نظراً لصعوبة تكوين جهاز معرفي وإجرائي واضح المعالم، وهذا يأتي بالتجاور مع الإفادة من الأبعاد السياقية، وبذلك فإن الشكل الوحيد لقيمة بلاغة الجمهور، وثوريتها، تتأتى من الإزاحة التي يمارسها على محور البلاغة من منشئ الخطاب إلى متلقي " الخطاب"، ولكن بصبغته الجمعية، مع محاولة تحليل تلك الاستجابات محاولاً تفكيك إشكاليات السلطة، ولكنه مع ذلك يبقى نزعة معرفية تستحق الاهتمام، كما أنها تستحق أن ترفد بأفعال مؤسساتية أو الدعم الكامل ضمن مخابر بحثية لتفعيل دوائر التجديد المعرفي التي تفتقر إليها مؤسساتنا الأكاديمية.

- **خاتمة:**

في ختام هذه الورقة، نخلص إلى أن هناك وعياً عميقاً بأهمية تطوير البلاغة العربية، ورفدها بحقول معرفية جديدة، من منطلق أن فعل التطوير يعدّ قيمة بحد ذاته، بالإضافة إلى التنبه لأثر التحولات والسياقات - المجتمعية والثقافية والسياسية- الدائمة والتحول على وسائط التعبير، وهكذا فقد بدا عماد عبد اللطيف مدركاً لهذه الحدود ساعياً إلى تكريس خطة علمية منهجية حيث بدأت نواتج هذا الفعل في التبلور، ولكن ثمة الكثير من المحاذير والإشكاليات المنهجية التي لوحظت في هذه الورقة، وذلك نتيجة التداخل بين هذا الحقل الناشئ والحقول الأخرى، فضلاً عن البنية التاريخية الكامنة في المجال البلاغي، والتي تضغط على أية محاولات للتعديل، أو التطوير، بالإضافة إلى أهمية ضبط مفهوم الجماهير كونها تنتمي إلى مرجعيات مختلفة ثقافياً، واجتماعياً، وعرقياً، وطبقياً (...) وهذا مما يعني تحديات تواجه هذا الحقل، بالإضافة إلى أن القيمة المعرفية للبحوث التطبيقية ما زالت في طور التجربة، بالتضافر مع محاولة تمثل للمقاربات المثلى بهدف الوصول نتائج معمقة كما تجلى لنا من خلال هذه الورقة، ولا سيما من ناحية الطرائق، والنواتج البحثية.

قائمة المصادر والمراجع:

1-جوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الساقي، 1991.

2-ريموند وليمز، الكلمات المفاتيح، ترجمة نعيمان عثمان، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧.

3-عماد عبد اللطيف، بلاغة الحرية؛ معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، بيروت، دار التنوير، ٢٠١٢.

4-فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014.

5-مجموعة من المؤلفين، بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي وعبد الوهاب الصديقي، البصرة، دار شهريار، 2017.

1. Lloyd Bitzer, The Rhetorical situation, Philosophy and Rhetoric, Vol, 1968.
2. David Morley, Television, Audiences and Cultural Studies, New York, Routledge, 1992.

3. Bump Isabel Shuttleworth, "The New Audience Theory" (2016). Senior Projects Spring 2016. Paper 247. http: //digitalcommons.bard.edu/senproj_s20 247/16

4. https: //clas.uiowa.edu/rhetoric/about/rhetoric-today

5. The Prestige (movie), Directed by Christopher Nolan, Warner Bros. 2006

الهوامش:

[1] فيلم العظمة The Prestige للمخرج كريستوفر نولان من إنتاج شركة Warner Bros، 2006.

[2] جوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الساقي، 1991، ص 55.

[3] انظر ريموند وليمز، الكلمات المفاتيح، ترجمة نعيمان عثمان، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧، ص ١٩٣.

[4] ريموند وليمز، المرجع السابق، ص 198.

[5] انظر عماد عبد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسة العربية، بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، تحرير وتقديم صلاح حسن حاوي وعبد الوهاب الصديقي، البصرة، دار شهريار، 2017. ص ٣٨.

[6] انظر وليمز، مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨.

[7] انظر وليمز، المرجع نفسه ص ١٩٨.

[8] انظر عماد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ الإسهام- الهوية المعرفية- النقد، بلاغة الجمهور، ص 18.

[9] عماد عبد اللطيف، بلاغة الحربة؛ معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، بيروت، دار التنوير، ٢٠١٢، ص ١٣.

[10] انظر جوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 45.

[11] انظر عماد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور؟ ص 25.

[12] انظر صلاح الحاوي وعبد الوهاب الصديقي، تقديم كتاب بلاغة الجمهور، ص 10.

[13] https: //clas.uiowa.edu/rhetoric/about/rhetoric-today

[14] عماد عبد اللطيف، بلاغة الجمهور، ماذا تقدم بلاغة الجمهور، ص 19.

[15] انظر، الحاوي والصديقي، تقديم كتاب بلاغة الجمهور، ص 9-11.

[16] انظر تقديم الكتاب ص 9.

[17] انظر عماد عبد اللطيف، مقدمة كتاب توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤، ص ١٢.

[18] انظر تحليل ديك لخطاب رئيس الوزراء الإسباني الذي كان يؤيد فيه الحرب الأولى التي شنته الولايات المتحدة على العراق ٢٠٠٣، فان دايك، المرجع السابق، ص ٣٨٥.

[19] Bump Isabel Shuttleworth, "The New Audience Theory" (2016). Senior Projects Spring 2016. Paper 247. http: //digitalcommons.bard.edu/senproj_s2016/247

[20] See: Lloyd Bitzer, The Rhetorical situation, Philosophy and Rhetoric, Vol. 1, (1968) PP1-14.

[21] Ibid, P2.

[22] Ibid, P3.

[23] Ibid, P4.

[24] Ibid, P9.

[25] عماد عبد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ 17.

[26] انظر عماد عبد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ ص 39.

[27] عماد اللطيف، ماذا تقدم بلاغة الجمهور، ص ٣٣.

[28] عماد عبد اللطيف، منهجيات دراسة الجمهور، بلاغة الجمهور، ص 136.

[29] عماد عبد اللطيف، المرجع السابق، 170.

[30] See David Morley, *Television, Audiences and Cultural Studies*, New York, Routledge, 1992, P.2.

[31]سعيد بكار، في مفهوم بلاغة الجمهور، بلاغة الجمهور ص 76.

[32]سعيد بكار، المرجع السابق ص 73.

[33]انظر صلاح حسن حاوي، بلاغة الجمهور ونظريات التواصل " نظرية التلقي أنموذج التلاقي والاختلاف"، بلاغة الجمهور، ص ١٠١.

[34]انظر، صلاح حسن الحاوي، المرجع السابق، ص ١٠١.

[35]انظر حامدة تقبايت، بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني، ص 203-204.

[36]انظر ضياء الدين محمد، بلاغة جمهور الخطاب الديني في الفضاء الافتراضي، دراسة في خصائص الاستجابات وآلياته، بلاغة الجمهور، ص٢٢١.

[37]انظر أحمد عبد الحميد عمر، يسقط، يسقط بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية الهجمات الشخصية ضد مبارك نموذجاً، بلاغة الجمهور، ص 55

[38]انظر أحمد عبد الحمدي عمر، المرجع السابق، ص 268-269.

[39]انظر بسمة عبد العزيز، بلاغة المقاومة " الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية، بلاغة الجمهور، ص ٢٧٢

[40]انظر المرجع السابق 272- 308.

[41]انظر بهاء الدين أبو الحسن، بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي، بلاغة الجمهور، ص 310.

[42]انظر خالد أبو الليل، السيرة الهلالية والتلقي الشعبي، بلاغة الجمهور، ص 367.

[43]انظر ممدوح النابي، السلطة المخادعة والوعي الزائف جمهور الرواية ورواية الجمهور، بلاغة الجمهور، ص 416.